نبأ ابني آدم عليه السلام

بدأ نظامُ الحياة يُستكمل حينما تهيّأت حوّاءُ لتستقبلَ أولادها، أولَ زهر تفتّح في رياض الإنسانية، وأولَ نَفْحة من نفحات البشرية، وبهم تَأنَس وتسعد مع زوجها آدم. وقد كانا شديدَي الحبّ والشّغَف أن يرَيا فلَذات أكبادهما على ظهر البَسِيطة، فتمتلىء جوانبُ الأرض بنسلهما، يمشون في مناكبها، ويأكلون مِنْ رزق الله. ولقد كان آدم حفيًّا بأبنائه، وحوّاء مستبشرةً بقدومهم، رغم ما قاست من أهوال وآلام؛ هي لِزَام على الأمُ دائماً في مثل هذه الحال، إلا أنها لا تلبثُ حتى تنتشيَ برُخاءِ[1] العطف والحنان، فإذا هي قَرِيرةُ العين، باردة الفؤاد.

وضعت حوّاء توأمين: قابيل وأخته وهابيل وأخته، وشبّ الإخوة في رعاية الأبوين، حتى ملأتهم نضارةُ الحياة، وقوّةُ الشّباب؛ فنزعت[2] البنتان إلى منازع النساء، وانبعث الولدان يضرِبان في الأرض كسْباً للرزق، وابتغاء للخير، فكان قابيل من زُرّاع الأرض، وكان أخوه من رعاة الأغنام.

لَانَ للأخوين مِهَادُ الحياة، وسهُل عيشها، وانتشر رِوَاق[3] السّلام والأمانِ على هذه الأسرة السّعيدة الطّاهرة. وعلى امتداد الزمن، وتتابُع فُسْحَةِ الأجل، قويت في كلا الفتيَيْنِ غريزةُ الرجولة، ومال كلٌّ منهما إلى أن تكونَ له زوجة ليسكن إليها ويطمئنَّ بصحبتها، وتعلّقت نفسُه بذلك الأمل الحُلو المعسول، وراحت تـتفَقّده وتتلمس كلَّ سبيل حتى تصلَ إليه، وإرادةُ الله جلّت[4] حكمتُه قضت منذ الأزل أن يُمتحن بنو آدم على ظَهْر البَسِيطة، فيكثر المال والبنون، وتأخذ الأرض بهجتها وتَزَيَّن، كما جرى القَدَر ألاّ يكون النّاسُ أمةً

---

(١) الرخاء: بفتح الراء تعني: حسن الحال وبضم الراء تعني: الريح اللينة.
(٢) نَزَعَ إلى شيء: أشبهه.
(٣) رَاق رَوقاً: صفا.
(٤) جَلَّ جلالاً: عظم وسما.

واحدة، بل لا بدّ من التكاثر، والتباين في الرأي والمنزَع، والنوع والخلقة، والسّعادة والشقاء: فأوحى الله تعالى إلى أبي البشرية أنْ يزوِّج كلَّ فتى من فتيَـيْه بتوأم أخيه.

بهذا أفضى آدمُ إلى أبنائه، راجياً أن يكون قولهُ الفصلَ، ولولا جموحُ[١] النّفس البشريّة، وانسياقُها إلى مهاوِي البَوار والخسران لكان للأب ما تمنّى.

والغريزةُ الإنسانيةُ قِوَامُها الحرصُ والطّمَع؛ فمن كبح[٢] جماح شهوته، وكسر حِدَة سطوته، وجعل لعقله سلطاناً على هَوَاه، فأولئك هم الذين أكرمهم الله في الدُّنيا والآخرة.

وأمّا من ترَخَّص لشهواته، وانفلت من عقْلِه زِمَامُ هَوَاه، فهو من الأخسرين أعمالاً الذين ضلَّ سَعْيُهم في الحياة الدُّنيا، وهم يَحْسَبون أنهم يُحسنُون صُنْعاً.

ذلك محكُّ الطبيعة الإنسانية، وممتَحَنُ النّفسِ البشريّة في هذه الأرض.

بعد أن أسرَّ آدمُ بمكنون صَدْرِه إلى ابنيه ثار قابيل، ولم ينزل على إرادة أبيه، لأنَّ نصيبه أقلُّ جَمالاً من نصيب أخيه، فنَفِس[٣] عليه، ولم يرْضَ بالقسمة، وودَّ لو تكون تؤَمته من نصيبه دون أخيه.

وقد كان الجمالُ الخِلْقيُّ ـ وما زال ـ ريحاً هَوْجاء تـتقاذف النفسَ البشرية، وقد تورِدها مواردَ الحتْفِ والهلاك.

كان الجمالُ سبباً للشقاق والمَوْجدة والحفيظة بين الأخوين، فجمع أحدهما عن طاعة أبيه، ونقض ما كان قد أبْرَمَ، وَفَصَم ما كان قد أحكم.

هبّت على الأب رِيَاحٌ عاصفة، ما دارت في خَلَده ولا حُسْبانه، وتوزَّعت نفسُه بين رغبة ابنيه، والإبقاء على السلام بينهما والأمان، إلى أنْ هَدَاهُ الله إلى مخرَج يسدُّ به مَهبّ الريح، فطلب إليهما أن يقرّب كلٌّ منهما قُرْباناً إلى الله، فأيهما تُقُبِّلَ قُرْبَانُه كان أحقّ بما اشتهى وأراد.

---

(١) جمح الرجل: ركب هواه. وجموح النفس هواها.
(٢) كبح جماح شهوته: كبتها وردها عن شهواتها.
(٣) نفس بالشيء على فلان: حسده عليه.

فقدّم هابيلُ جَمَلاً من أنعامه، وقدّم قابيل قَمْحاً من زراعته، وكلٌّ منهما يترقرق في صَدْرِه فَيْض الأمل، راجياً أن يظفرَ بقَصَبِ السبق، وأن يحوزَ أعوادَ الرهان.

وكان هابيلُ موفورَ الحظ موفَّق الخطوات، فتُقَبَّل قُرْبَانه ولم يَتَقَبَّل قُرْبَان أخيه، لأنه لم ينزل على حُكْمِ أبيه، ولم يخلص النية في قُرْبَانه.

بعد ذلك سُقِط في يَدِ قابيل؛ إذ انطفأ أملهُ، وراح ضحيةَ الأثرَة والحقد، وانبعثت شرورُه، وامتدت نَوَازِيه، فتوعّد أخاه، وقال: لأقتلنّك حتى لا أصاحبك شقيًّا وأنتَ سعيد، ولا أُؤاخيك مبسوطَ الأمل وأنا مضطهدُ العاطفة، كاسف البال.

فقال هابيل لأخيه ـ والحسرةُ تقطع فؤاده ـ: كان أولى لك يا أخي ثم أوْلَى، وأن تـتعرّفَ موضعَ الداء فتحسمه، وأن تـتحرّى مسالك السلامة فتنبعث إليها؛ لأنَّ الله لا يتقَبَّلُ إلاّ من المتّقين.

وكان هابيلُ رجلاً رزقه الله بسطةً في العقل والجسم، من الذين حُمِّلوا الأمانة فصانوها، ووُهبوا الحكمة فأجلُّوها، يُؤْثِرُ رضا الله، ويتعشق طاعة الأبوين، ويرضى بقسمة رَبّه، ويرى أن الحياة متاع[١] زائل، وعَرَض[٢] حائل[٣]، وكان شديدَ الإشفاق على أخيه، دائبَ النصح له، والرّعْوَى[٤] عليه، وكان كذلك يرى في نفسه قوةً من قوة الله، فما يَضيره تهديدُ قابيل، وهو غِرٌّ مفتون ذو أثَرَةٍ[٥]، وذو عصيان!

ترك المقادير تجري في أعنّتها[٦]، وما تعلّقت مشيئته بسوء لأخيه، ولا اختلجت نفسُه بأذى؛ لأنَّ الله الذي خلق الطهارةَ طبَعَهُ عليها يوم طُبِع، فهو يخافُ الله رب العالمين.

اتّجه بعد ذلك هابيلُ بالنصح إلى أخيه: عَلَّ كلماتِه يكون فيها الشفاء فتنزِع داء

---

(١) المَتَاع: التمتع.
(٢) العَرَض: متاع الدنيا.
(٣) حائل: متغير.
(٤) الرعوى: الارتداع والانزجار.
(٥) الأَثَرة: تفضيل الإنسان نفسه على غيره.
(٦) الأعِنَّة: جمع عنان وهو سير اللجام الذي تُمسك به الدابة.

الحقد من قَلْب أخيه، فقال: يا أخي، إنّكَ لجائر، مائل عن طريق الصواب، آثمٌ في عزمك، بعيد عن جادّة الحق في رأيك، فأوْلى لك ثم أولى أن تستغفر الله، وأنْ ترجع عن غَيّك[١]. أمَّا إذْ عقدت عَزْمَك، وكنتَ في تدبيرك ماضياً لا محالة، فإني لأترك الأمر إلى الله، مخافةَ أن يلحقني إثم، أو يتعلّق بنفسي أثرٌ لعصيان، فتحمل وحدك الإثم فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين.

لم تكن آصِرةٌ[٢] الأخوّة شفيعةً أمام ذلك الحِقْد المُتّقِد في صَدْرِ قابيل، ولم يكن مبعثُ الحنوّ والرحمة والعطف ليهدّىء من ثورة ذلك البركان الثائر، ولم تكن مخافة الله، ولا رعاية حقوق الأبوين رادعةً لتلك النفس التي كانت أول من أجرم على ظهر البَسِيطة من الناس.

في ساعةٍ منْ ساعاتِ الفَلَك الدائر، ولنزْوَةٍ[٣] حقيرةٍ من نزوات النفس الجامحة وقعت الواقعةُ؛ فراح هابيل قتيلاً بيد أخِيه، فريسةَ الْحُمْقِ والجهالة والغرام.

ذوَى[٤] عُود الأخ النّضير، وانطفأ مصباحُه، وغاب عن الأُفق الذي كان يطالع أباه فيه؛ فاستوحش آدم، وراح يتفقّد ابنَه هابيل، عَلّه يقف له على أثر، أو يَبُلُّ أُوَام شَوْقه بخبَر. فسأل قابيل عن أخيه؛ فردَّ رَدًّا ملؤه الخفّة والطيش، وقال: ما كنتُ عليه وكيلاً، أو راعياً وحفيظاً. ولكن آدم عرف بَعْدُ أنَّ ابْنَه قد قُتل؛ فسكت على هَمٍّ وَتَبْريح[٥]، وكبت في نفسه تلك الشعلة التي هاجت حُزْناً عل فقيده وإشفاقاً على أخيه:

أقـول للنفـس تـأسَـاءً[٦] وَتَعْـزِيـةً إحـدى يـديَّ أصـابتنـي ولـم تُـرِد

ولقد كان هابيلُ أوّل من قُتل على ظهر الأرض، وما عرف قابيل كيف يواري جُثة أخيه؛ فحمله في جراب على ظهره، وظل مضطرباً حائراً قَلِق النفس مُلتاع الفؤاد، كيف

(١) غَوى غيًّا: أمعن في الضلال.
(٢) الآصرة: ما عطفك على غيرك من رحم أو قرابة.
(٣) يقال نزا به الشر: ثار وتحرك.
(٤) ذوى العود: ذبل.
(٥) التباريح: الشدائد.
(٦) تأساء: مواساة وتعزية.

لا، وقد غدت نفسُه ميداناً تختصم فيه الحفيظة والعاطفة؛ فبات معذباً نابيَ المضجع، موسَّدَ الهمّ والحزن والعار!

أرْوَحَ[١] الميت، وناء قابيل بحمله، ولم يَدْرِ كيف السبيل!

هنا لا بدّ أن تهبط رحمةُ الله رعايةً لحق تلك الجثة الطاهرة، وسنًّا لدستور الخليقة، وإبقاءً على كرامة آدم وولديه، وهنا كذلك لا بد أن يكون دَرْسٌ قاسٍ يتلّقاه ذلك الغِرُّ المأفون[٢]، وما هو بأهل لوحي الله، ولا لإلهام الله، بل لا بدّ أن يكوّن تلميذاً للغُرَاب! يتضاءل فهمُهُ أمام حُنْكَةِ[٣] ذلك الحيوان الأسود الضّعيف، وَتَفْنى شخصيته بعد ذلك الدرس المؤلم الذي يتلقاه ذليلاً، صغير النفس، معذب الفؤاد.

بعث الله غرابين فاقتتلا؛ فقتل أحدُهما صاحبه، ثم حفر له بمنقاره، ووَارَى[٤] جثته تحت التراب. هنا استشعر الندم والحسرة، فقال: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾[٥]

---

(١) أروح: أنتن.
(٢) المأفون: الناقص العقل.
(٣) الحُنكة: التجربة والبصر بالأمور.
(٤) وارى: أخفى.
(٥) سورة: المائدة، الآية: ٣١.